



قلوب مؤتلفة
من ذكرياتي مع الشيخ
خليل إبراهيم نده الكبيسي



علم
د. سفيان الجنابي

الألوكة

www.alukah.net

قلوبٌ مؤتلفةٌ

من ذكرياتي مع الشيخ
خليل إبراهيم نده الكبيسي
(رحمه الله تعالى)

بقلم:
د. سفيان الجنابي

العراق - 2015 م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين..

وبعد فهذا مقال (أو كتيب صغير) أعدته على عجلة لتوثيق بعض من ذكرياتي مع رجل من أفاضل هذا الزمان، قد ذهب لملاقاته ربه جلّ وعلا قبل أشهر قليلة، وهو الشيخ المرابي الفاضل خليل إبراهيم نده الكبيسي، نزيل الرمادي، صاحب السيرة العطرة والتجرد الجميل والعمل الصامت الدؤوب..

نسأل الله تعالى أن يتقبله في الشهداء والصالحين، ويجعل من الفردوس الأعلى مستقره ومثواه..

وإنما أحببت الإسهام بجهد المقل هذا، رغم أن صلتي بالشيخ خليل الكبيسي رحمه الله تعالى التي امتدت حوالي خمس سنوات، تعتبر مدة قصيرة نسبياً بصلات غيري من تلاميذه ومحبيه التي استمرت لسنوات أكثر من ذلك بكثير. فهؤلاء الأحبة يعرفون الشيخ أكثر مني، وعاشوه لسنوات طوال، وهم أجدر مني بالكتابة عنه.

وقد علمت من الأستاذ عبد الرحمن ابن الشيخ خليل أن هناك من هؤلاء من كتب أو بدأ بالكتابة لتوثيق حياة الشيخ، وقد أرسل لي الأخ الأستاذ عبد الرحمن حفظه الله بعضاً من ذلك مشكوراً..

لكني في هذا المقال إنما أثبت على شيء من العجالة شهادتي بحقه رحمه الله تعالى على قدر معرفتي به، لعلي بذلك أقوم بوفاء شيء من حقه وفضله علي (من بعد فضل الله تعالى) ولو بشيء يسير.

أسأل الله تعالى التوفيق والقبول، على ما كان مني من
زلل وتقصير، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وكتبه

د. سفيان الجنابي

السليمانية- العراق

يوم الخميس العاشر من ربيع الأول 1436هـ

الموافق 2015/1/1م



"دير بالك، فتح عيونك، من شغلك ووري، تلاحك نفسك"

من أقوال الشيخ خليل الكبيسي التي أعتبرت شعاراً لمدرسته، وقد كُتبت على جذع شجرة أمام المكتبة التي كان يقيم فيها، وهي باللهجة العامية العراقية، ومقتضاها يدعو كل إنسان لأن يبادر بالعمل لإنقاذ نفسه من المهالك.. وأشكر الأخ عبد الرحمن خليل وبقية الأخوة والأحباب على توفير هذه الصورة.

نصيحةٌ غاليةٌ

في ليلة صافية مغمرة، ذهبت لزيارة الرجل العجوز، فقد سمعت للتوّ أنه قد أصيب منذ بضعة أسابيع بوعكة صحية شديدة.. وبعد وصولي إلى بيته، سلمتُ عليه وسألته عن صحته، حيث أنه كان قد تجاوز المرحلة الحرجة في مرضه، لكن آثار التعب والنحول لم تزال بادية عليه وعلى حركاته المثقلة..

قال لي: الحمد لله تعالى، المؤمن دائماً بخير، وقد مررت بحالة صحية قال الأطباء عنها أنها كانت صعبة، لكنني في الحقيقة كنت كأني مغيب عنها، فلم أكن أشعر بشيء سوى أنني لم أكن أستطيع الحركة ولا الكلام.. لكنهم يقولون أنني تجاوزت الأزمة الآن.. الحمد لله، كله من لطفه وكرمه..

قلت: الحمد لله تعالى على سلامتك.

قال: الحمد لله، لقد وقع في قلبي منذ الأمس أنك ستزورني، وها أنت قد جئت اليوم.

قلت: الحمد لله، واعدرتني فأنا لم أسمع بمرضك قبل اليوم..

قال: لا داعي للاعتذار، فأنا أعرف أنك مشغول، وأقدر تماما صعوبة السفر من بغداد إلى هنا وخصوصا في هذه الأيام..

ثم سألتني بعدها: سمعت أنك ستنتقل من بغداد إلى الرمادي، هل ستنتقل للعمل في الجامعة التي في الرمادي، أم تريد أن تنقل سكنك فقط؟

أجبت: في الحقيقة لقد صدر الأمر الجامعي بنقلي إلى جامعة الأنبار في مدينة الرمادي، ولكنني أجلتُ تنفيذه

مدة شهرين تقريباً لحين مجيء العطلة الصيفية.. وحينها سأقوم بنقل عملي وسكني إن شاء الله إلى الرمادي.. فأنت تعرف ظروف الفوضى الأمنية التي تشهدها بغداد حالياً، ورغم أن وضع الرمادي ليس مستقراً أيضاً، لكني أعتقد أنه أسلم لي للظروف التي تعلمها..

قال: الحمد لله، إن شاء الله يكون خيراً.

قلت: لقد استخرت الله تعالى أكثر من مرة في الأمر، وقد انشرح صدري لمغادرة بغداد حالياً إلى الرمادي، رغم أن علاقتي الإجتماعية والعلمية والأكاديمية هي متركزة في بغداد التي أصبحت مستقراً لي منذ ذهابي للدراسة فيها منذ سنين عديدة.

قال: الأمر لله تعالى من قبل ومن بعد.. هل لديك معارف في الرمادي؟

قلت: بإستثناء أحد أحوالي الذي يسكن هناك، فأنا بالكاد أعرف بعض الأشخاص..

قال لي: سترتاح هناك في هذه المدة بإذنه تعالى، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.. اطمأن، فإن الله تعالى لا يبسر لعبده إلا الخير.

وفي تلك اللحظة خطر ببالي سؤال كان يشغلني كثيرا في ذلك الحين، فبادرت بإستشارة الرجل العجوز بشأنه، فقلت: خلال الأسابيع الماضية سألتُ بعض من أعرف عن المشايخ من أهل العلم والصلاح ممن يسكنون الرمادي، لعلني أستطيع الاستفادة والأخذ منهم إذا سكنت هناك.. لكنني لم أصل لحد الآن إلى الإجابة الشافية، فهل تستطيع أن تفيدني وتنصحي في هذا الأمر؟

قال: ولماذا أنت تبحث عن هؤلاء العلماء والمشايخ؟

قلت: كما تعرف، لقد كنت في بغداد أحضر بعض
دروس العلم حسب المستطاع، وقد وفقني الله تعالى
للأخذ عن بعض مشايخها في القراءات والفقهِ وغيرهما،
وأنا أحب أن أوصل الأخذ في هذه العلوم وأمثالها.

صمت قليلاً وأطرق برأسه، ثم قال: أنا أعتقد أن
حصيلتك الحالية في علوم الشريعة المطهرة تكفيك، ولكن
ربما ما تحتاج إليه فعلاً هو مزيد من الأخذ عن أصحاب
القلوب العاملين، لتزكو نفسك ويصفو قلبك، وتدرِك لذة
العبودية الحقّة لله تعالى، التي كان بعض السلف يقول
عنها (لو علمَ الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم
والسرور لجالدونا عليه بالسيوف)..

قلت: وهل هناك في الرمادي من يستطيع أن يفيدني في
ذلك؟

قال محاولاً استجماع كل ذاكرته: الشخص الذي أظنه
الأنسب لك في ذلك هو الشيخ فلان (وذكر لي اسمه)،
لكنه قد توفي مؤخراً رحمه الله تعالى..

قلت له: سمعت أيضاً عن رجل اسمه الشيخ خليل
الكبيسي، قالوا لي عنه أنه صاحب إعاقة جسدية ويقوم
بشكل دائم في مكتبة أحد الجوامع الرئيسية في الرمادي،
فهل تعرفه؟

قال: نعم أنت تتحدث عن الشيخ خليل إبراهيم نده
الكبيسي، وقد عرفته منذ سنوات طويلة، وساقه قد بُترت
منذ شبابه، وهو كما ذكرت مستقر منذ سنين في مكتبة
جامع السوق القديم (ويسمونه أيضاً جامع الشيخ عبد
الملك) في الرمادي، وهو رجل طيب نتوسم فيه الصلاح.
قلت: وما تنصحي بشأنه؟

قال: رأيي أنه لا بأس أن تذهب لزيارته مرة أو مرتين في مسجده، فهو يستقبل كثير من الناس هناك، واجعل زيارتك له زيارة عامة، ثم أنظر قلبك، ووثق صلتك به لاحقاً بمقدار ما تجده من انشراح في صدرك تجاهه، وبعكسه فلن تكون هناك فائدة تترجى من كثرة ذهابك إليه.. فهو من نمط خاص!..

ورغم أنني لم أفهم تماماً مقصد الرجل العجوز في كلامه الأخير عن الشيخ خليل الكبيسي، ولا ما عناه بقوله أنه من نمط خاص، فإني قررت في داخلي أن أعمل بنصيحة ذلك الرجل، الذي طالما عهدتُ منه الصدق والورع والتقوى، والله تعالى حسينا وحسيبه..

تأخرت الزيارة ولكن..

ومضى ما يزيد عن عامين منذ انتقالي إلى الرمادي، وبسبب الأوضاع الأمنية، وبسبب انشغالي بترتيب تفاصيل عملي الجديد هناك، وتفهمي المتدرج للواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي للبيئة الجديدة التي انتقلت إليها، لم أقم بالزيارة الأولى المرجوة إلى الشيخ خليل الكبيسي طيلة تلك المدة، حتى وكأني قد تناسيت الأمر تماماً..

وذات يوم ذكرتُ اسم الشيخ خليل الكبيسي على بعض زملائي في الكلية مستفهماً عنه وعن مكانه، فأجابني أحدهم أنه على صلة وثيقة به وأنه قد زاره قبل بضعة أيام.. كما أخبرني ذلك الزميل أنه على استعداد لإصطحابي لزيارة الشيخ خليل، وأنه متأكد أن الشيخ خليل سوف يسر بلقائي.. فقلت في نفسي أن الوقت

قد حان لزيارة الشيخ، وهكذا تحققت زيارتي الأولى له، والتي استقبلني فيها كعادته بالحفاوة والترحاب، واهدى لي فيها بعض الكتب النافعة..

وخلال السنوات الخمس اللاحقة التي سبقت استشهاد الشيخ خليل رحمه الله تعالى، وهي التي تمثل المدة التي تعرفتُ عليه فيها، كانت زيارتي إليه غير منتظمة وبغير مواعيد مسبقة، وبمعدل زيارة واحدة كل ثلاثة أشهر تقريباً..

غير أن زيارتي له ازدادت في السنة الأخيرة من حياته حتى أصبحت تتكرر قرابة كل شهر. وخلال تلك السنوات فهمتُ تماماً ما عناه الرجل العجوز في نصيحته، وعرفتُ بعمق النمط الخاص للشيخ خليل الكبيسي.. وأدركت كيف يكون تلقي القلوب وتآلفها، وإن تباعد اللقاء.

وقد علمتُ تلقائياً بفضل الله تعالى أن تلك الزيارات المتباعدة هي الأسلوب الأنجع بالنسبة لي للاستفادة من الشيخ خليل علماً وعملاً وحالاً.. فكثرة التردد قد لا تجدي، كما الانقطاع التام لا يجدي نفعاً. وكم شاهدتُ من أناس في مجلس الشيخ، لا يكادون أن يفهموا من كلامه وسلوكه سوى القشور، ويغفلون عن أكثر اللب رغم كثرة المجالسة، وإن كنتُ أرجو لهم الاستفادة بما يسره الله لهم من محبة الشيخ في الله تعالى..

فالأصل هو صحيح المجانسة ليحصل التلقي، وخصوصية النمط تجعل دوائر الاستفادة متعددة المستويات تضيق وتدرج.. وهكذا هو أمر البضاعة النفيسة دوماً، لا تبذل إلا لمن يعرف قيمتها الحقيقية.

رؤيا خيرٍ في أول الأمر

رأيتُ الشيخ خليل في بداية تعريفي عليه في رؤيا منام،
وكأن الله تعالى قد دفع بسببه، وبسبب الرجل البسيط
الذي كان يقوم بخدمته ومساعدته في المسجد (إلتقيتُ
ذلك الرجل بضعة مرات ولا أعرف اسمه)، رأيتُ كان الله
تعالى قد دفع لأجلهما بلوى أو شراً عن أناس من أهل
الرمادي (ولستُ أذكر الآن هل كنتُ أنا ضمن أولئك
الناس أم لم أكن معهم).. ففرحتُ بذلك كثيراً..

وقد كنت حينها مسافراً، فاتصلتُ بأحد الأخوة،
وطلبتُ منه أن يبلغ سلامي للشيخ ويخبره برؤيائي، وكما
علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر الرؤيا
الحسنة..

فهي إن شاء الله تعالى من المبشرات للحديث الشريف الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه وغيره عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ("لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّبُوءَةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ".
قَالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: "الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ").

صحيحُ البدايات

قال لي الشيخ خليل رحمه الله تعالى ذات يوم :

منذ كذا وأربعين سنة (نسيت أنا الرقم الذي ذكره بالضبط) وأنا مقيم في هذا المسجد، لم أغادره إلا نادراً ولأوقات قصيرة، ورأيتُ الكثير والكثير من الناس، من المشايخ، ومن طلبة العلم، ومن الجماعات والأحزاب المختلفة، ومن عوام الناس.. وقد مررتُ بتجارب عديدة مهمة معهم، لكنني لم أقم بتوثيقها، لأني كنت أجهل أهميتها وأظنها لا تستحق التوثيق في ذلك الحين، فنسيتُ كثيراً منها.. لذلك فنصيحتي لك هو أن توثق جميع تجاربك وكلَّ ما يمر بك، حتى وإن ظننته في البداية أنه لا قيمة له، فسوف تدرك لاحقاً أهمية ذلك، وتفيد به أخوانك الآخرين (لذلك كان الشيخ يشجعني كثيراً على الكتابة والتوثيق)..

وقد حدثني الشيخ عن رجل عامي بسيط من الفقراء (من مظاهر الدنيا) اسمه الحاج عواد، كان لا مأوى له، فبييت في حديقة المسجد، وكان ممن لا يؤبه لمثله.. قال لي الشيخ: (ما قمتُ في أي وقت من الليل إلا وجدته يصلي أو يدعو الله تعالى)..

وكان الشيخ يقارن حال ذلك الرجل البسيط مع حال أناس آخرين (دون أن يذكر أسماء معينة) يعدّون أنفسهم من الأكابر والعلماء والمصلحين، وهم بعيدون كل البعد عن حقيقة العبادة وحقائق الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

كما أخبرني الشيخ خليل كيف أنه وفي بداية أمره، سأله أحد الأفاضل ممن عُرفوا بالصلاح عن شاب فقير يكدح طيلة اليوم ليعيل أهله في عمل شريف بسيط، وكان رغم

ضيق الحال (الديني) الذي يعيشه لا يضيع صلاة الجماعة في المسجد..

وقد قال الرجل الفاضل للشيخ خليل: (هل أنت تهتم أو تلقي بالأداء لذلك الشاب فلان إن جاء أو ذهب؟)، فأجابه الشيخ: (وكيف لا وأنا أراه لا يضيع فرضاً في المسجد رغم عسير حاله!)، فقال الرجل الفاضل: (إذاً أنت إن شاء الله على خير كثير، وقد وضعت قدمك على الطريق الصحيح، بعكس أولئك الذين ينبهرون بالشهادات والأموال والمناصب والوجاهات الدنيوية، فهم على خطر عظيم، ويخشى عليهم الزلل مع كل خطوة، وإن جهلوا هم ذلك)..

منهج شرعي عملي

كان الشيخ خليل عملياً بطبعه، فهو يحب العمل، ولا مجال في حياته للجدل.. وكان لا يجب لأحد أن يكون كثير الكلام قليل العمل، مصداقاً لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) (الصف: 2-3)..

وكان مما رددته أمامي لأكثر من مرة أنه يعتبر من يقوم بالعمل لسد ثغر من ثغور الإسلام مهما كان بسيطاً بأنه خير ممن يكتب أطروحة دكتوراه في علوم الشريعة لمجرد الحصول على الشهادة أو الوظيفة، بل أنه يعتبر ذلك العمل خيراً من آلاف شهادات الدكتوراه من هذا النوع..

وفي هذا الصدد أثنى الشيخ كثيراً على بعض من قاموا بمشروع محدود لتزويج الشباب بتكاليف قليلة في بعض المناطق الريفية، التي لا زال أهلها يحافظون على البساطة في أمور الزواج، ولما يصبهم الداء الذي أصاب غيرهم من المبالغة والتكلف في مصاريف ومتطلبات الزواج.

بل قد كان الشيخ يسعى لإنضاج منهج تربوي عملي لتحقيق الإخلاص وغيره من العبادات الباطنة في القلوب.

وقد كان مهتماً بشكل خاص بتصميم وتنفيذ تمارين عملية متنوعة تهدف لتعظيم الخالق جلّ وعلا في النفوس، لأن ذلك من أركان الإخلاص في العبادات والخشوع في الصلوات.

وقد كان جل تركيز الشيخ خليل على وضع حلول عملية قابلة للتطبيق لما يواجهه الشباب ذكوراً وإناثاً من مشاكل

كثيرة وعميقة، بسبب الأوضاع السياسية والإقتصادية والأمنية التي مرت وتمر بها بلادنا، والتأثيرات الهائلة التي أحدثتها في البنى الإجتماعية والجوانب النفسية، وخصوصاً مع القفزات التكنولوجية في مجالات الإتصالات والإعلام والبنث الفضائي.. وكان يعتبر ذلك أولوية لأي عمل إسلامي جاد في هذا الزمن.

ثقافة شرعية مؤصلة

لقد أدرك الشيخ أهمية نشر الثقافة الإسلامية البناءة بين أبناء المجتمع، وخصوصاً الشباب منهم، كما أدرك الدور المهم الذي يمكن أن يسهم به نشر الكتب والكتيبات الصغيرة والمطويات الأنيقة الهادفة في هذا الإتجاه. وقد كانت هناك كتب متنوعة تتجمع لديه بنسخ كثيرة لغرض توزيعها. وبعض هذه الكتب كان يسهم بنفسه شخصياً في إعداده ونشره وطباعته، وبعضها الآخر كانت تُهدى إليه لما عُرف عنه من اهتمام بنشر وتوزيع الكتاب لكل من يمكن ان يستفيد منه، مجاناً لوجه الله تعالى..

ورغم كثرة الكتب التي كان يقوم بتوزيعها ونشرها، إلا أن الشيخ خليل كان حريصاً جداً أن يصل كل كتاب إلى مكانه الصحيح وإلى الشخص المناسب.. وأذكر مرة أنه

جاءه شاب وطلب منه مصحفاً ليبيته قائلاً أنه لا يمتلك مصحفاً في البيت، فأشار له الشيخ إلى أكثر من رف في المكتبة مملوءة بالمصاحف المعدة للتوزيع، وقال له الشيخ: (ليست المشكلة بالمصحف، فيمكننا أن نعطيك منها العدد الذي تشاء، لكن المشكلة ماذا ستفعل بالمصحف؟ هل ستقرأه باستمرار أم أنك ستتركه على الرف جانبا؟)..

وقد أخبرني الشيخ خليل بأنه هو الذي طرح على الشيخ عبد الجليل إبراهيم الفهداوي (رحمهما الله جميعاً) فكرة تأليف كتاب (أساليب الاستعفاف للشباب المسلم)، وقد قام الشيخ عبد الجليل الفهداوي بتأليف هذا الكتاب، وصدر الكتاب عن دار الأنبار للطباعة والنشر عام 1992م.

وفي عام 2013م طلب الشيخ خليل الكبيسي مني أن أستأذن عائلة الشيخ عبد الجليل الفهداوي في إعادة طباعة هذا الكتاب وإخراجه بشكل جديد، بعد أن نفذت طبعته القديمة. وقد وافقت عائلة الشيخ عبد الجليل الفهداوي على ذلك..

وبدأ الشيخ خليل العمل فعلاً لإنجاز المشروع، وتم إعادة تنضيد الكتاب لغرض إرساله للطبع، لكن بعد فترة وجيزة بدأت الإضطرابات والعمليات العسكرية في الرمادي مطلع عام 2014م، وتقطعت أغلب الطرقات، وشُلت معظم جوانب الحياة، وترك كثير من الناس ديارهم.. ثم استشهد الشيخ خليل الكبيسي رحمه الله تعالى، ولا أدري هل استكمل الشيخ طباعة الكتاب أم لا؟..

وكان مما ينبه الشيخ خليل كثيراً عليه خصوصاً بالنسبة لمن يتولون الخطابة وإلقاء المحاضرات في المساجد، هو أن يهتموا بعلم الحديث النبوي الشريف، ليتجنبوا الأحاديث الموضوعية، ولا يستشهدوا بالأحاديث الضعيفة في موطن لا يصح الاحتجاج بمثلها فيه، وخصوصاً أن ذلك بدأ يثير الجدل والتناحر بين المصلين في بعض المساجد..

رفقته للصالحين

كان الشيخ خليل الكبيسي رحمه الله تعالى محباً للصالحين ورفقتهم، ويعلم جيداً مدى الخير العميم الذي جعله الله تعالى مقروناً بصحبتهم ومجالستهم..

وقد أخبرني أنه في أحد مواسم الحج، إلتقى في الحرم بأحد أصدقائه من المشايخ من أهل العراق الذي سأله عن العلماء (الرسميين المشهورين) الذين إلتقاهم من أهل الفقه والحديث وغيرها من علوم الشريعة المطهرة.. وقال لي الشيخ خليل أنه في الحقيقة ما كان آنذاك مهتماً كثيراً بلقاء هؤلاء العلماء على جلاله قدرهم، ورغم حبه وتوقيره لهم، لكنه كان يتمنى لقاء أبسط إنسان من أهل الصدق والصلاح والفتوة السليمة، يمكن له أن يعينه في تهذيب نفسه وإصلاح قلبه!..

فالشيخ كان موقناً بأن الإخلاص هو سر القبول في الأعمال الشرعية، وأن إدراك الأخلاص لا يتم بغير مداواة للقلوب وتزكية للنفوس.

وقد حدثني مرة أن الشيخ عبد الوهاب السامرائي رحمه الله أخبره أنه ذهب في أيام شبابه إلى الشام والتقى فيها رجلاً معروفاً من العلماء الصالحين، وأنه جلس في مجلسه مدة ليست بالقصيرة، وقد استغرب الشيخ عبد الوهاب في حينها أن ذلك الرجل العالم المعروف بالصلاح لم يتحدث كثيراً عن شؤون المسلمين العامة التي كانت متسمة بالإضطراب، فقال الشيخ عبد الوهاب لذلك العالم معاتباً: (يا شيخ، "مَنْ لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم") - مشيراً بذلك إلى الحديث المشهور على ألسنة كثير من الخطباء والوعاظ رغم ضعفه-، فأجابه العالم الصالح: (يا سيدي، نفسك أيضاً من المسلمين

فاهتم بها!).. وقد كان هذا درساً بليغاً للشيخ عبد الوهاب في بداية حياته..

وكان الشيخ خليل يذكر بتأثر واحترام بالغين بعض مواقف الرجل الصالح الحاج كسار رحمه الله تعالى، ولا نزكي على الله تعالى أحداً.

والحاج كسار ممن استفاضت أخبار صلاحه وتقواه لدى جميع أهالي الرمادي. ورغم بساطته وتجرده من جميع متاع الدنيا وابتعاده عن زخرفها ومناصبها، فقد كان يوم وفاة الشيخ كسار يوماً لم تشهد مدينة الرمادي مثله، حتى لقد كادت المدينة أن تخرج عن بكرة أبيها في تشييع جنازته، التي تراحم الناس لأجل حملها على الأكتاف، وسارت الجموع بها مسافة طويلة إلى المقبرة التي تقع خارج مدينة الرمادي. وكان ذلك التشييع مهيباً وطغت

على جميع من حضره روحانية عجيبة، بإجماع كل من حضر يومها وكانوا غالبية أهل مدينة الرمادي..

ومما ذكره لي الشيخ خليل هو أن وفداً من علماء ومشايخ مدينة الرمادي قابلوا رئيس الدولة في تسعينيات القرن الميلادي المنصرم، وذلك أثناء مرحلة الحصار الإقتصادي الذي فُرض على العراق. وبعد انتهاء تلك المقابلة، عاد الوفد من بغداد إلى الرمادي.

وقد كان ضمن الوفد أحد المشايخ الذين يحبون ويوقرون الحاج كسار. فذهب ذلك الشيخ إلى دار الحاج كسار ليخبره عن المقابلة وما جرى فيها.. فقال ذلك الشيخ للحاج كسار: (لقد قابلنا الرئيس في بغداد أنا وفلان وفلان!)، وعدد من كان معه.. فأجابه الحاج كسار: (وماذا طلبتم منه؟)، فأجاب ذلك الشيخ مفتخراً: (طلبنا منه تطبيق الشريعة الإسلامية بشكل كامل في العراق)،

فردّ عليه الحاج كسار متهكماً: (لو طلبتم رزاً.. لو طلبتم سُكراً.. لو طلبتم زيتاً.. لو طلبتم شاياً..).

وقد علّق الشيخ خليل الكبيسي على تلك الحادثة قائلاً: (لم يكن من عادة الحاج كسار أن يأبه لمثل هذه الأمور، وهو في العادة لا يلقي بالاً لأمر دنيوية أكبر من ذلك، وكان المتوقع منه عندما تم إخباره بأمر تلك المقابلة أن يتجاهل الموضوع تماماً ويكتفي بالصمت، لكنه تفاعل مع الشيخ الذي أخبره، لأنه كان يجب ذلك الشيخ، فأراد أن يعلمه درساً ثميناً قلّ أن يحظى المرء بمثله)..

وأكمل الشيخ خليل قوله: (لقد أراد الحاج كسار وهو الرجل البسيط الذي لم يكن يحمل أي من الشهادات التي حملها ذلك الشيخ، أن يعلم صاحب الشهادات وأمثاله، أن شرع الله تعالى إنما يطبق بعد أن يبنى الإيمان في النفوس لا قبل ذلك، وأنه لا يليق بمن لم يطبق شرع

الله تعالى على نفسه وعلى أهل بيته، ولا يوجد مانع خارجي يصدّه عن ذلك، لا يليق به أن يتنطع ليطلب بتطبيق الشرع على كافة المجتمع، خصوصاً وهو يعلم أن طلبه هذا لا يمكن له أن يُجاب.. فلو طلب مثل هذا طعاماً لنفسه ولغيره من الناس في ظرف الحصار الإقتصادي الصعب آنذاك لكان أجدى له وأجمل وأصدق مع نفسه ومع المقابل، وقبل ذلك مع الله تعالى)..

ولقد فهم ذلك الشيخ مقصد الحاج كسار تماماً ووعى الدرس.. وذكر لي الشيخ خليل أنه وبعد سنوات من تلك الحادثة إلتقى في المدينة المنورة بذلك الشيخ الذي كان قد هاجر خارج العراق، وكيف أن ذلك الشيخ قد بادر في أول اللقاء في تذكر ذلك الدرس القيم الذي أخذه من الحاج كسار الرجل البسيط..

كما حدثني الشيخ خليل عن رجل عالم مشهور (لم يذكر لي اسمه) كان كثير من الناس ومن أهل العلم يُجَلِّونَه، ويظنون فيه الصلاح.. غير أن الحاج كسار كان لا يميل إلى ذلك العالم، ولا يرضى لأحد من خواصه أن يتقرب منه..

فاستغرب أحد محبي الحاج كسار ذلك الموقف منه، وألح عليه في السؤال عن سبب ذلك، فأجابه الحاج كسار قائلاً: (أني رأيت صاحبكم هذا يلبس "البرنيطة" بدل العمامة!)، وقد قصد الحاج كسار بذلك أنه رأى في المنام أن ذلك العالم استبدل "البرنيطة" (وهي كلمة عامية معناها القبعة التي يلبسها الغريون) بالعمامة التي هي جزء من الزي الذي اعتاد العلماء على لبسه في أكثر البلاد..

ورغم أن ذلك المحب لم يقتنع تماما بكلام الحاج كسار،
إلا أن الأيام اللاحقة سرعان ما كشفت صدقه، وإذا
بذلك الشيخ العالم يجانب مسلك الشرع ويتبع مسالك
أهل الضلال، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

ورؤيا خيرٍ في آخره

في عصر يوم صيفي من عام 2013م ذهبت إلى مسجد الرمادي القلم لزيارة الشيخ خليل الكبيسي، فوجدته يجلس في حديقة المسجد ومعه رجل آخر، فظننت أن هنالك شأنًا خاصاً بينهما، فقررت الرجوع وعدم مقاطعتهما، والعودة بعد ساعة من الزمن..

فلما هممت بالرجوع انتبه الشيخ خليل لي فناداني وطلب مني الجلوس معه، فلم أجد بداً من تلبية طلبه والجلوس معهما، ثم أن ذلك الرجل سرعان ما غادر وبقينا أنا والشيخ، فنظر الشيخ إلي نظرة ملؤها الفرح والسرور، وطفح البشر من وجهه وهو يقول لقد رأيتك معي في رؤيا طيبة الليلة الماضية..

فقلت له: خيراً إن شاء الله تعالى..

فذكرني بما رواه الإمامان البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ)..

ثم قال الشيخ خليل: (وإن شاء الله يكون ما رأيته بالأمس رؤيا صالحة، فقد رأيتك أنت وأنا ونحن نجلس في حديقة خضراء يانعة، والأزهار الجميلة من مختلف الألوان تحيط بنا من كل جانب، ويوجد حول الحديقة طرق مستقيمة معبدة ونظيفة ومفتوحة، وهي طرق جميلة جداً)..

وأكمل الشيخ: (.. وقد استبشرْتُ بذلك خيراً، وأولتُ الطرق المستقيمة المعبدة على أننا نحن الأثنين نسير على طريق الشرع القويم الذي ارتضاه الله تعالى...).

وأنا أسأل الله تعالى مسألة عبد مسكين ذلّت رقبته خالقه ومولاه أن يجعلنا جميعاً من أمة نبينا محمد صلى

الله عليه وسلم، وأن يجعلنا من العاملين بسنته المطهرة،
ومن الواردين على حوضه الشريف يوم القيامة، بفضل
الله تعالى ومنّه وجوده وكرمه.

إشراق النهايات

جرت سنة الله تعالى في عباده، أنّ من صحت منه البدايات، أكرمه الله تعالى بإشراق النهايات، تحنناً من لدنه وتفضلاً.

وطيلة السنوات الخمس التي امتدت خلالها لقاءاتي بالشيخ خليل، رأيت بأم عيني مدى خصوصية هذا النمط الفذ من رجال الإسلام الذي قلّ نظيره في زماننا هذا، ولا نزكي على الله تعالى أحداً.

ففي حين رضي كثير من مسلمي اليوم بالإنسحاب إلى الفرق والجماعات والأحزاب، بل وتفاخروا بذلك رغم عظيم الفتنة والفرقة التي أصابت الأمة بسبب ذلك، لم يتصرف الشيخ خليل يوماً إلا على أساس كونه مسلماً مؤمناً، يجب كل المسلمين ويرجو لهم الخير، ويوالي كل

منهم على قدر ما فيه من إيمان وتمسك بهدي النبي
المصطفى صلى الله عليه وسلم، دون تمييز بين الفئة
الفلانية والفرقة العلانية، من الأسماء والمسميات التي
اكتظت بها ساحات المسلمين اليوم..

فقد كان الشيخ خليل طيلة حياته يمثل نقطة الالتقاء
لكل الجماعات والتوجهات الإسلامية العاملة في ساحة
محافظة الأنبار، وفي مدينة الرمادي على وجه الخصوص.
فتمسكه بالنهج النبوي الصافي القائم على العمل
المستمر وتصحيح النية فيه، وترك الالتفات إلى أهل
الجدل والتشبيط، جعل الجميع ينظرون إليه بثقة واحترام..

بل أن من تمام فضل الله تعالى على شيخنا، أن الله
تعالى ألقى محبته بين الناس في الرمادي، حتى أن من كان
يخالفه منهم في هذه المسألة أو تلك، لم يكن أمامه سوى
أن يلتزم حدود الأدب والإحترام مع الشيخ وتلاميذه.

وطيلة مدة رفقتي للشيخ لم أسمعه مرة ينتقص أمامي أحداً بشخصه أو جهة بعينها، بل كان يحب الجميع ويتمنى التوفيق لكل عامل للخير؛ وإذا لزم الأمر كان الشيخ يعرض أحيانا ببعض الأعمال مما يخالف الشرع الحنيف والأدب النبوي الرفيع، أمام بعض الخواص من تلاميذه، دون تشهير بالجهات أو الأشخاص.

وعلى سبيل المثال، كان الشيخ خليل يمقت ما يفعله البعض من طلب الوجاهات لدى الحكام والمسؤولين بإظهار الحرص على الدين، ويعد ذلك من عظيم سوء الأدب مع الله تعالى ومع رسوله صلى الله عليه وسلم..

وقد غضب الشيخ مرة عندما سمع عن بعض ممن يُحسبون على أهل التدين والإلتزام من المسلمين الذين أثقلوا على مسؤول عُرف عنه شيء من الإلتزام بالشرع والحفاظ على الصلاة، فكانوا ييقون في بيته حتى الساعة الثانية بعد

منتصف الليل أو أكثر، فقال الشيخ لبعض خواصه: (كيف يمكن لهذا المسؤول أن يحافظ على صلاة الفجر بعد ذلك، وهو أحوج ما يكون لها الآن، وإن ضيعها فسيكون لما سواها أشد تضييعاً!).. هكذا بتعميم يوصل الدرس والمقصود، دون ذكر للأسماء والأشخاص.

ومما أنعم الله تعالى به على الشيخ خليل، هو حب الشيخ للعلم واستمراره في الطلب حتى آخر يوم من حياته، فقد عهدته في الشهور الأخيرة من حياته وهو يطلب العلم ويبحث عن الحكمة موقناً حقاً بأنها ضالة المؤمن. وكان الشيخ ممن علموا قيمة قول (لا أدري) أو (لا أعلم)، فكان لا يخوض في أمر لا يعلمه، ولا يبالي بإحالة من يسأله عن أمر كهذا إلى شخص آخر، حتى لو كان هذا الشخص واحداً من تلاميذه.

وقد سمعته مرة يضرب مثلاً عن الجهل أو نقص المعرفة
الذي يعيشه أغلبنا بقضية عالم الملائكة، الذي رغم
عظمته واتساعه لا يكاد أحدنا أن يكتب عنه أكثر من
صفحة واحدة!..

خِتامُهُ مِسْكٌ

كانت آخر سفرة للشيخ خليل (على حد علمي) إلى تركيا، وكان ذلك أواخر صيف عام 2013م، وقد ألتقيته بعدها ثلاث مرات على ما أظن، وقد تحدثنا عن تفاصيل كثيرة بشأن تلك السفرة وحصيلة ما خرج به الشيخ منها، وقد أكد الشيخ مرة أخرى أمامي على أننا ينبغي أن نستفيد من تجارب الآخرين، لكن مجرد استنساخ هذه التجارب لن يكون حلاً لأحد.

وعندما بدأت الإضطرابات والأعمال العسكرية في مدينة الرمادي مطلع عام 2014م، غادرتُ أنا وعائلي الرمادي إلى حيث يسكن الأهل في مدينة حديثة..

وقدر الله تعالى أن يكون هذا هو آخر العهد من الدنيا بالشيخ خليل الكبيسي، حيث أن الشيخ قد استشهد

في تلك الأحداث، نسأل الله تعالى أن يرفع مقامه عنده في الشهداء والصالحين.. ومن المعروف عن الشيخ خليل إبراهيم نده الكبيسي أنه قضى ما يزيد عن أربعين عاماً مستقراً في مكتبة جامع الرمادي القديم، حيث لم يكن يغادره إلا نادراً، وبقي ثابتاً هناك في أقسى الظروف التي مرت بها المدينة، وقد كان يقضي جل وقته بالتدريس والتربية والتعبد وتقديم المساعدة والنصح لمن يأتيه، وهم أكثر.

وقدّر الله تعالى أن تكون خاتمة شيخنا بسقوط قذيفة هاون على حديقة الجامع، مما نتج عنه إصابة الشيخ بجروح نقل الشيخ على أثرها إلى المستشفى، وبعد حوالي ثلاثة أسابيع أنتقل إلى جوار ربه فجر يوم الجمعة الموافق 2014/2/14م..

وإننا لنحتسبه عند الله تعالى شهيداً، ونظن أن الله تعالى قد أحسن خاتمته بنيل الشهادة، وأوصلها إليه كرامةً، حتى وإن كان هو من المعدّرين (بسبب وضعه الصحي الخاص)، ونحسب أن صدقه مع الله تعالى أبلغه ذلك بفضل الله تعالى ومنتته.. والله تعالى حسيننا وحسيبه.

وأخيراً..

قد كان مما جاء في مقدمته لكتابي (لمحات من مسيرة الشيخ عبد الجليل إبراهيم الفهداوي) والتي كتبها بتاريخ شعبان 1434هـ / حزيران 2013م ما يلي:

(وهذا الكتاب جزء من منهج دراسة شخصيات علمية معاصرة سأقرأه وإخواني للاستفادة من تجربة العلماء العاملين، وقد ذكّرني هذا السفر الكريم بصفة ماتت في هذا الزمان وأصبحت كالإبريز الأحمر ألا وهي صفة "الوفاء" ..)

وأني لأرجو ان يكون هذا المقال يمثل جزءاً ولو صغيراً من الوفاء للشيخ خليل إبراهيم نده الكبيسي رحمه الله تعالى.. وأرجو من أخواني من محبي الشيخ أن يسامحوني إن وجدوا زلة في كلامي عنه أو خانتني الذاكرة في تذكر

بعض التفاصيل، وأن يجعلوا من محبة الشيخ خليل شفيحاً
لي عندهم في ذلك..

ويقيني أن مدينة الرمادي بعد الشيخ خليل الكبيسي لن
تكون هي ذاتها مع وجوده فيها، فهو رجل عاش حياته
لله تعالى، وجعل جهده وعمله منصباً لخدمة تلك المدينة
وأهلها، لا يريد منهم جزاءً ولا شكوراً سوى رضا مولاه
جلّ في علاه.. فكان الشيخ طيلة حياته منارة مشعة تنير
دروب المدينة ومسالكها، بنور الإيمان والتمسك بسنة
النبي صلى الله عليه وسلم.

وهكذا مراحل الحياة إنما تحدد معالمها أفعال رجال قد
وفقههم الله تعالى لها.. ومع ذلك فالأمل بالله تعالى أن
يجعل من أبناء الشيخ وأخوانه وأحبابه وطلابه من يكون
خير خلفٍ لخير سلفٍ، وما ذلك على الله تعالى بعزيز.

فلهه درك يا شيخنا خليل، طبتَ حياً وميتاً، نسأل الله
تعالى أن يجمعنا بك في الجنة، وأن يحشرنا جميعاً تحت
لواء سيد المرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،
وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا ونبينا محمد،
وعلى آله وصحبه أجمعين.

المحتويات

3	المقدمة
9	نصيحة غالية
16	تأخرت الزيارة ولكن..
19	رؤيا خيرٍ في أول الأمر
21	صحيحُ البدايات
24	منهج شرعيٍّ عمليٍّ
27	ثقافةٌ شرعيةٌ مؤصلةٌ
31	رفقته للصالحينَ
39	ورؤيا خيرٍ في آخره
42	إشراقُ النهايات
47	ختامه مسكٌ
50	وأخيراً..
53	المحتويات